شعر محمد حسين آل ياسين بين التقليد والتجديد

م. م. أحمد علي إبراهيم
كلية الإدارة والاقتصاد / الفلوجة / جامعة الأنبار

يحتل الشاعر الدكتور محمد حسين آل ياسين مكانة رفيعة، وموقعاً متميزاً في حركة الشعر العربي ، كونه يتمتع بشاعرية كبيرة ، وحسٍ فني ، وذوق رفيع، فشعره يعيد إلى الأذهان مرحلة الإزدهار في الشعر العربي ، الذي نهل منه الشاعر كثيراً، فضلاً عن تمكنه من اللغة ومفرداتها ، وإن هذه اللغة أهّلته لأن يقف في صف شعراء العراق البارزين ؛ لأنها بعيدة عن التكلف والتصنع والاسفاف والغموض ،ويعد أحد الشعراء الذين مازالوا يمتلكون قوة الأداء وجزالة التركيب ،وأثبت قدرته في بناء القصيدة العمودية في الوقت الذي أهملت فيه بحجة التجديد في القصيدة الحديثة .

وقد نهل الشاعر من التراث الشعري العربي القديم فهو (يمتلك ناصية القديم فينهل منه، ويضيفه على بناء قصيدته قوةً وأحكاماً ، فلا يضطرب عنده السبك بتأثير موجات شعرية محدثة غير أصيلة ، وفي الوقت نفسه نجده يقبل على المعاصرة الحقيقية التي تمثل روح الأمة ووجدانها وواقعها فيحاول أن يمزج بينهما)[١].

والقارئ لديوان آل ياسين يشعر بأزاء طاقة شعرية هائلة تتمثل في جزالة الأسلوب وبلاغة التعبير ، كما يلحظ القارئ تطور لغة الشاعر وارتفاعها عن مستوى البدايات ، نتيجة لاشتغاله بالدرس اللغوي في موضوعي الأضداد في اللغة والدراسات اللغوية عند العرب.

وقد نهل الشاعر من التراث العربي ، وظهر هذا الأثر واضحاً في شعره ، فهو شاعر معاصر يمتلك ثقافة السلف فمزج بينهما وصهرهما بأسلوب العصر ويصف الدكتور جليل كمال الدين الشاعر بقوله : (إننا سنقترف خطيئة كبيرة بحق الشاعر وشعره ، إذا وصفناه شاعراً سلفياً ، فهو ليس من السلفية الجامدة في شيء وكل ما لديه إنه شاعر غنائي أصيل ،ولكنه لا يتنكر للتراث والأصول التراثية)[٢] وأشاد أكثر النقاد بشاعريته وعدّه بعضهم خليفة الجواهري ، إذ يقول الشاعر نعمان ماهر الكناني (الجواهري شاعر كبير له مكانته الشعرية العالية وورثه الدكتور محمد حسين آل ياسين ،وهو الآخر مقتدر جدير ومؤهل لهذا التقليد)[٣].

ويرى الدكتور داود سلوم أن آل ياسين يحمل من صفات الجواهري وسماته شيئاً كثيراً[٤].

وقد أشاد الجواهري نفسه بشاعرية آل ياسين فقال : (وإنني لفخور أن يتصدر فارس مثلك الساحة الأدبية في العراق التي تكاد أن تفتقر من فرسانها ومن أضراسها لتشيع فيها من جديد روح العزة وسمو الكرامة وقدسية الإبداع)[٥].

إن أثر القرآن الكريم واضح في شعره، وذلك من خلال الاقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، من ذلك قوله في قصيدة (قلب غزير):

وإذا ضجّ لهيباً قلت : يا نار كوني فيه برداً وسلاماً[٦]

أخذه من قوله تعالى : ((قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم))[٧].

وفي قصيدة (أبا الشعر) يقول :

فقلت له ، دم فوق جرفك آمناً فإنك لا تستطيع فيه معي صبرا[٨]

تأثر بقوله تعالى : ((قال إنّك لن تستطيع معي صبرا))[٩].

كما تأثر بأحاديث النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ومنها قوله :

كم أرهب السبع السغبان قاصية لكنها أرهبت في جمعها السبعا[١٠]

استمد حكمة هذا البيت من قول الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) : (عليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)[١١].

واعتاد الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي أن يتفاخروا بأنسابهم وقبائلهم وبطولاتهم ،وشاع الفخر والاعتداد بالنفس في الشعر العربي ، ويعد الشاعر آل ياسين امتداداً لهؤلاء الشعراء ،وسار على نفس خطاهم ، فنرى معاني الفخر تعلو في ديوانه الأول (نبضات قلب) الصادر عام ١٩٦٦م إذ يقول :

أعابوا عليّ الشعر فناً وصنعة وما علموا لولاي ما ازدهر الشعر
ولولاي لم يبعث طروب بلحنه ولا صدحت من فوق أغصانها الطير[١٢]

وكذلك قوله في قصيدة (أنا والزمان) :

أجوب دروب المعالي حثيثاً فخير الدروب دروب المعالي
ولي مطمح كان صعب المنال فذلك عزمي صعب المنال

.....

أنزه روحي عن المغريات وأهزأ–دهري–بقيل وقال[١٣]

وفي قوله :

وعجّت بأسماع الدهر قصائدي فرتّل منها كلُّ ثغر مغرد[١٤]

يحاول أن يحاكي قول المتنبي :

ما الدهر إلاّ من روّاة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا[١٥]

ويتشبه بكبار شعراء التراث في قصيدة (العذراء) ويعبر عن طموحه الشعري قائلاً :

سُهدني في قلبِ إلى المجد طامحٌ بمقدور ، أن لا يبيتَ مُسهداً[١٦]

كما أن الفخر ظل يتردد على ألسنة الشعراء عبر امتداد القرون في تاريخ الشعر العربي ،ونرى أن آل ياسين يعتز بهذا الفخر ،وهذا السمو اعتزازاً كبيراً ،وخير ما يصور اعتداده بنفسه وفخره بشعره قوله في قصيدة (عمر جديد) :

ولو شئت سقت الشعر مني عصائبا تحيل مراسيها القصور مقابرا[١٧]

كما أنه كان كثير الشكوى في شعره كقوله :

بعدتُ والشوق في الأحشاء نوار والحب عاتٍ وإن شطت بنا الدار[١٨]

وفي قوله شاكياً :

كفاني بؤساً أن أرى البؤس سعدي وحسبي أن أظمأ بما عتقت يدي[١٩]

تأثر بقول المتنبي :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا إن يكن أمانيا[٢٠]

ومن المعروف أن شعر الشكوى من الاغراض التي شاعت في الشعر العربي أبان الفترة المظلمة ، إذ شكا الشعراء الزمان الذي رفع الوضيع ووضع الرفيع ،ويرى الناقد يوسف نمر ذياب أن (تقليد آل ياسين يقترب كثيراً من شعراء الفترة المظلمة في الأساليب والأغراض لا من أعلام الشعر العربي في العصر العباسي والعصور التي سبقته)[٢١].

وأرى أن أثر هذا التقليد نابع من إنكباب الشاعر على حفظ دواوين الشعراء القدماء فضلاً عن دراسته اللغوية.

وفي قصائده الوطنية يلتحم عنده العنصر الانساني والمشاعر الصادقة بالحس الوطني والقومي كقصيدة أغنية شهيد ، و معركة بدر الكبرى،وصوت العراق ، وجيش العرب ،والجاحظ ، وصورة العراق ،وفيتنام وغيرها[٢٢] وحسبنا أن نتمثل بقصيدة (معركة بدر الكبرى) فنراه يتمثل بمعركة بدر الكبرى في شعر وجداني معاصر ، وتشمخ ذكرى المعركة في شعره ليس كمجرد مناسبة تاريخية عابرة ، وإنما كمنبع للالهام والفكر ، وان دروسها وعبرها حية دائماً ، إذ أن الفئة القليلة تغلب الفئة الكبيرة بإذن الله وبتصميمها وإيمانها الذي تفقده جهة الشرك والظلم فيقول : –

يا نخبة الله شدّت أزرها قيم ثارت تدك دنا الأوثان والنُصبِ
يحدو بها صدق إيمان بخالقها ويرسم الدرب بالتوجيه خير نبي
عافت زخارف دنياها مضحّية من أجل إسعاد هذا العالم اللغبِ
قليلة هي عند الملتقى عدداً كثيرة هي عند النصر والغلب
فللعقيدة عند الرّوع أفئدة تأتي إذا التحم الجيشان بالعجب[٢٣]

ويخرج الشاعر بجملة دروس، أولها أن الحرية لا تصان إلا بالدماء ، وهذا يذكرنا بقول المتنبي الخالد على مدى الزمان :

لا يسلمُ الشرفَ الرفيع من الأذى حتى يُراقُ على جوانبه الدمُ[٢٤]

وقول أحمد شوقي في معركة دمشق:

وللحرية الحمراء باب بكل يدٍ مضرجة يدقّ[٢٥]

ويرى الناقد سعيد جاسم الزبيدي إن من (خصائص آل ياسين إنه يمتلك ناحية القديم فينهل منه ، ويضيفه على بناء قصيدته قوة وإحكاماً فلا يضطرب عند السبك بتأثير موجات شعرية محدثة غير أصيلة ، وفي الوقت نفسه نجده يقبل على المعاصرة الحقيقية التي تمثل روح الأمة ووجدانها وواقعها فيحاول أن يمزج ما بينهما وبين أكثر من نسغ يمتد إليه من التراث)[٢٦].

ويقول الناقد عبد الجبار عباس عن قصيدة ياذل واديك (إن الشاعر يبدو قريبا من طريقة أبي تمام ، فهي سلسلة تأملات ذاتية يضفي عليها الضمير العائد في روي الأبيات ظلاً من الغموض والمعاني وهذا الغموض وهذه التأملات معروفة في شعر أبي تمام)[٢٧] .

وفي (زيتونة الله) تبدو القصيدة الاسلامية في اعلى صورها وهو يعبر عن إيمانه العميق ، ويُذكّر بماضي أجدادنا العظام الذين أوصلوا نور الإسلام إلى أبعد بقاع الأرض . وفي نهاية القصيدة يعبر عن عزة الامة وكرامتها بقوله :

أما حياة يعيش العز بساحتها أو عزة في ممات دونها بدل[٢٨]

وهذا اللون من الشعر نجده كثيراً في الشعر العربي ، ولا سيما في شعر المتنبي ، لكنه في هذا البيت يبدو متأثراً ببيت أبي القاسم الشابي :

وأما حياة تسر الصديق أو ممات يغيض العِدا[٢٩]

واستعان الشاعر في شعره الوطني والقومي ببعض الالفاظ الحديثة المعروفة نحو : دبابة ، رشاشة ، كهرباء ، وغير ذلك مما يتطلبه بناء القصيدة كما إن أثر العبارات الجاهزة أو الصيغ الموروثة بات معدوماً أو كاد في شعره الوطني ، وإن كانت بعض الالفاظ غريبة فإنها تفهم ضمناً داخل السياق العام للقصيدة ، لأن (الشاعر البارع حقا هو ذاك الذي يستطيع أن يبعث الحياة من جديد في ألفاظ على وشك الإندثار أو الموت)[٣٠].

ذكرنا أن آل ياسين تأثر بالتراث الفكري واللغوي واستعمل ثقافته في اللغة وعمل على احياء المفردات المعدومة ووظفها في قصائده ، فنجح في توظيف المفردة العربية القديمة في القصيدة الحديثة ، كقوله في قصيدة أوراق مسافرة :

أتقبضُ كفكَ خوف الضياع وفي بسطها الأفق الأرحبُ
وتغمض عينك خوف الظلام ومن نورها يهرب الغيهبُ
وتبخل بالدّم وهو الرخيص ومن سكبه يزهر المجدب[٣١]

ومن الالفاظ الاخرى التي وظفها في شعره (الفلوات ، جهام ، الثمام، القتام ، جفنة)[٣٢].

استطاع الشاعر أن يهب الحياة لهذه المفردات المعدومة ، كما إن جرسها جاء متناسقاً ومتناغماً في البيت الشعري لأن أثر صوت الكلمات لا يبلغ (أقصى قوته إلا من خلال الإيقاع)[٣٣] وإن اللفظ القبيح هو الذي (لا يلائم السياق الذي جاء فيه)[٣٤].

وفي غزله نلمس عاطفته وشاعريته في أشد إنفعالها ، من خلال الصور الشعرية ، والألفاظ المعبرة ، ونلمس صراعاً حاداً يتمثل في التموج العاطفي الذي يعلو وينخفض حينما يرضخ لسلطان العقل مرة ثم يعود ويشتكي حينما يرضخ لرغبات القلب ، فنراه مرةً يعالج الحب علاجاً صوفياً يخلو من المعاني المبتذلة ، كقوله في قصيدة الرحيل :

قد ركبت الهوى أخفّ جناح لك ، أطوي الدروب طيّ الرياح
ليس زادي وما تزودت شيئاً غير شوق – يغذبي – ملحاح[٣٥]

وفي قصيدة أخرى ينحى منحى آخر حينما نراه فتىً متزناً رافضاً الحب وعاشقاً للرحلة والكتاب ، يقول:

إبحثي عن سواي بين الشباب واتركيني أحيا نقـيّ الثيـاب
أنا ما جئت كي يشاغل مني الـ قلب بوح النجوى وهمس التصابي
بل لأني أهوى من المعهد الحلـ و حبيبين : رحلتي وكتابي[٣٦]

وفي قصيدة المعاذير تزداد شكوى الشاعر إذا أنّ دبيب الحبّ دبّ في كل جسمه ، والغرام ملأ قلبه :

رعشة الحب لم أذقها إلى أن دبّ منها في كل جسمي دبيب
ووجيب الفؤاد ما ذقت حتى غمر القلب من هواك وجيب[٣٧]

ويحاول أن يحاكي قول المتنبي :

ففي فؤاد المحب نار الهوى أحرّ نار الجحيم أبردها[٣٨]

إذ يقول :

لم نخش إثما على أن سوف يوردنا جهنماً ،وبنا في الإثم إصرار
لأننا إن وردناها فشافعنـــا حبّ تغلّغل في القلبين جبّار
ذقنا لهيب الهوى ناراً مضاعفـة تهون في سقر من بعدها النار[٣٩]

لكنه أخرج المعنى بصورة جديدة بعدما أضاف إليه معنى آخر.

ورسم صورة لحبيبته حين تخيّل نهديها كحمامتين حبستا في قفص ضاقتا بفسحته:

وحطّمي قفصاً ضاقت بفسحته حمامتان عليها منه آثار
خطّ من الثوب محمّر سأوسعه لثما ليبقى ببعد منه تذكار[٤٠]

إن مثل هذه الصورة لم ترد في التراث الشعري العربي القديم ، حيث يلاحظ فيها الجدة والابتكار في التصوير ، لكني وجدت فيها محاكاة للصورة الشعرية التي رسمها الشاعر العراقي المرحوم أحمد الصافي النجفي حين صوّر نهود حبيبته كطيور سجنت في قفص :

ونهود أحكمت أزرارها كطيور سجنت في قفص
تبتغي الوثوب فلا يمكنها هي والصيّاد رهن الخصص[٤١]

إلا إن آل ياسين حاول أن يضفي على الصورة معنىً جديداً متمثلاً بالبيت الثاني.

وديوانه مليء بالصور الشعرية الجميلة التي اعتمد في رسمها على اتجاهين المخزون الثقافي والجد والابتكار .إذ ان الصور الجميلة لا تتأتى لكل من يكتب الشعر ما لم يكن مستوعباً للتراث ، ففي قصيدة زيتونة الله يطالعنا بصور شعرية حيّة :

زيتونة الله لم ينبت لها مثل وأقفر الكون لا أرض ولا زحلُ
صبية لم تشخ والدهر شاخٍ بها وشيخة من صباها يعجب الأزل
فروعها في ذرى الاوراس عالقة وجذورها في ثرى بغداد متّصلُ
ولونها من أديم الشمس سمرته وعينها برؤى القرآن تكتحل[٤٢]

والملاحظ في أغلب صوره الشعرية بعدها عن التقليد ونشوزها عن القديم، كونها تمثل رؤيته الخاصة وانطباعاته الشخصية.

ومن صوره الجميلة ما رسمه في قصيدة الفاتحة :

يطوف عليَّ الشعر شتى عرائس وليس بها من طائف غير محرم
فيأنس لفظ إنه بات شاغل شاغلي ويفخر معنى أنّه صار ملهمي
هو السحر لا يجلوه مثلي توأم وقد عجزت عنه مواهب توأمي[٤٣]

وتصويره الحب الذي فقد صفاه الطاهر ، فصوره بأنه حمل فقد أمه وتاه في الصحراء وضفرت به الذئاب لتنهشه :

حمل تائه وقد ظفرت فيه ذئاب مشحوذة الانياب
تدّعي أنها سترعاه كالأم فعاشت أمومة في ذئاب
ليس في حاجة لأم ولكن لترو وفطنة وحساب[٤٤]

كما مال الشاعر إلى رسم الصور البلاغية ، ولا سيما الصور البديعية ، فقد طابق بين (الحلال والحرام ، والهنى والبؤس ، والنور والظلام ، والكوخ والقصر ، والدمع والابتسامة ، والقشور واللباب ، والحياة والموت ...)[٤٥]

وشعره زاخر بالموسيقى الشعرية ، فمن وسائله التنغيمية التكرار الذي لمسناه في قصائد عديدة منها قصيدة (نشيد الأمجاد) إذ كرر لفظه (شقيّاً) سبع مرات ، وفي القصيدة نفسها يكرر (لولا) خمس مرات:

فلولا الهشم يمرع لم تسود جفان الجود هاشمه الهماما
ولولا جولة من ذي فقار بيوم الروع لم يخلد حساما

ولولا الفتح يزهر في الجام وفكر ما هوى الفكر اللجاما
ولولا الشرق يعلو في سنام عروش الغرب لم تشهد سناما
ولولا ألف معجزة توالت أبت إلا انتصاراً أو حماما[٤٦]

ونرى في قصيدة (مناجاة) نغماً موسيقياً جميلاً ، إذ يكرر (لِمَ) سبع مرات ، وفي قصيدة الأماني يكرر أداة التمني (ليتني) خمس مرات .

وكرر الفعل (بقى) وفي قصيدة (بلا موعد) خمس مرات[٤٧].

يتضح لنا أن الشاعر حاول أن يتشبه بأسلافه كأبي نؤاس وأبي تمام والمتنبي واتجه في شعره اتجاهين ، الأول : يحافظ فيه على التقاليد الموروثة ، والآخر : يجدد فيه من خلال الاغراض ، والصور الشعرية ، ليعبر عن أدامة الصلة بين التراث والحاضر ، وعن أصالته في استعمال الأغراض الشعرية الموروثة بالروي العمودي إسهاماً منه في إحياء التراث لأن (مجرد إحياء الأنماط الشعرية العالية يمكن أن يعد تجديداً)[٤٨].

لذلك فإنّ آل ياسين وإن كان شاعراً تقليدياً فقد سار على نهج الشعراء القدماء ، فهو شاعر أصالة وإحياء للماضي الشعري ، كما ويعد شاعراً مجدداً وذلك من خلال صياغة الموروث في أطر فنية جديدة ، وإبتكاره لمعان جديدة ، لأن ذلك يعد تطويراً للفن الشعري من خلال رؤية الشاعر الخاصة ،وسعة خياله وإمكانياته الفنية ، وفي قوله :

هو شعري ولستُ أسأل هل لا نت قوافيه أم تأبى عصيا
فمتى يخفق الفؤاد شعوراً خفق الشعور مالئاً شفتيّا[٤٩]

نلمس الطبع والسجية ، وتبدو العفوية جليّة في شعره .

الهوامش

(١) آل ياسين بأقلام الآخرين ، ص١٢٢، ثامر عطا ابراهيم ، منشورات مكتبة الفكر العربي ، مطبعة المعارف – بغداد ، ١٩٨٦م.
(٢) مجلة البلاغ العدد (١) السنة (٨) ١٩٧٩م.
(٣) آل ياسين بأقلام الآخرين ، ص٢٠٣.
(٤) ينظر : م. ن. ص ١٨٩

(٥) رسالة شخصية الى الشاعر مؤرخة في ٣-١-١٩٨٣م.

(٦) ديوان آل ياسين ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٨٤م، بغداد ص٨١.

(٧) سورة الانبياء الآية (٦٩) .

(٨) ديوان ص٣٢١،وينظر : ص٧٣، ٣٥٥، ٣٦٦.

(٩) سورة الكهف الآية (٦٧) .

(١٠) ديوانه ص ٧٩.

(١١) صحيح البخاري : ٢٤٤/١.

(١٢) ديوانه ص٧٤.

(١٣) م.ن. ص ١٦.

(١٤) م.ن.ص ٦٧.

(١٥) ديوان المتنبي شرح النيسابوري ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ص ٥٣٤.

(١٦) ديوانه ، ص ٢٦٤.

(١٧) م.ن. ص ٩٨.

(١٨) م.ن. ص. ٦٦ وينظر : ص ١٣٣، ٣٢٣.

(١٩) م.ن. ص. ٥٨.

(٢٠) ديوان المتنبي ص٦٧.

(٢١) آل ياسين بأقلام الآخرين ص ٩٦.

(٢٢) ينظر: ص ١٣٥، ١٣٧، ١٥٠، ١٥٩، ١٨٢، ٢١٧، ٢٧٦، ٣٢٣، ٣٣٣، ٣٤٢، ٣٥٨، ٣٦٩.

(٢٣) م.ن.ص. ١٨٣.

(٢٤) ديوان المتنبي ص ٢٥٦.

(٢٥) الشوقيات ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الحادي عشر ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ٧٧/٢.

(٢٦) آل ياسين بأقلام الآخرين ص ١٢٣.

(٢٧) م.ن. ص ١٢٧.

(٢٨) ديوانه ص ٢٩٦.

(٢٩) ديوان ابن قاسم الشابي ص ٢١٢.

(٣٠) دير الملاك ، د. محسن اطيمش ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط٢، ١٩٨٦، ص١٩٤.

(٣١) ديوانه ص ١٩٧.

(٣٢) م.ن.ص. ٣٠٣، ٣٣٥، ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٦٠.

(٣٣) مبادئ النقد الادبي ، رتشاردز ، ترجمة مصطفى بدوي ، مراجعة لويس عوض . المؤسسة المصرية للترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦١، ص٢٢٨.

(٣٤) موسيقى الشعر – ابراهيم أنيس ، القاهرة ، ١٩٧٢م، ص٢٨.

(٣٥) ديوانه ص ٢٤.

(٣٦) م.ن. ص٨٣.

(٣٧) م.ن.ص ٨٠.

(٣٨) ديوان المتنبي ص ٨.

(٣٩) ديوانه ص ص٦٨.

(٤٠) م. ن. ص ٦٩

(٤١) شعر أحمد الصافي النجفي ، دراسة حاتم عبد حبوب ، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٩م، ص ١٩٨

(٤٢) ديوانه ص ٢٩٦.

(٤٣) م.ن.ص ٣٧٠.

(٤٤) م.ن.ص ٧٣.

(٤٥) ينظر: م.ن.ص٦٣، ٧١، ١٣٣، ١٨١، ٢٢٢، ٣٢٠.

(٤٦) م.ن. ص ٣١٢.

(٤٧) ينظر : م.ن.ص ٢٧٤.

(٤٨) مقدمة ديوان محمود سامي البارودي ، المطبعة الاميرية بالقاهرة ، ١٩٥٤م.

(٤٩) ديوانه ص ٧٠.